أوغسطين ـ الغزالى

أبو العلاء ـ دانته

للدكتور جواد على

بالرغم من اختلاف عصرى كل من المفكرين الكبيرين « أوريليوس أوغسطين » قديس المسيحية ، و « الغزالى » حجة الإسلام وزين الدين ؛ فإن بين الرجلين تشابهاً يكاد يكون عجيباً . تشابهاً فى الحياة الخاصة ، وتشابهاً فى [illegible] وفى التفكير والإبداع ، حتى فى الشخصية تكاد تلامس روحا واحدة فى جسمين مختلفين . عاش أحدهما وهو القديس « أوغسطين » فى شمالى أفريقية بين سنة ٣٥٤ وسنة ٤٣٠ الميلاديتين . وعاش الثانى فى بلاد الشرق الأدنى بين سنة ١٠٥٨ وسنة ١١١١ الميلاديتين أيضاً وبين الرجلين كما ترى عدة مئات من السنين

انتقل « أوغسطين » من حياة الشك إلى حياة اليقين ، وانتقل حجة الإسلام « الغزالى » من عالم الشك إلى عالم اليقين كذلك ، وكان القديس « أوغسطين » فى آخر حياته صوفياً ناسكاً ، وكان « الغزالى » فى رأس قائمة متصوفى المسلمين . وقد درس « أوغسطين » الفلسفة والمنطق وعلوم اليونان ومعارف عصره ؛ ولكنه لم يجد فى كل هذه الأمور لذة ولا سعادة ، بل وجد لذته فى القناعة والزهد والدين الحق ، ووجد « الغزالى » نفس ذلك أيضاً

لم ينحصر وجه التشابه فى طراز معيشة كل من الرجلين العظيمين ولا فى أسلوب الدراسة واختيار الدروس فقط ، بل ظهر ذلك حتى فى طريقة إبراز المعلومات من عالم الفكر إلى عالم الوجود . ألّف « أوغسطين » كتاباً مهماً سمّاه (مملكة الله)[1] De civitate dei ذاع خبره فى جميع العالم المسيحى ، وألّف كتاباً آخر سمّاه (العقائد) Confessiones[2] . وألّف « الغزالى » عدة كتب فى مواضيع تكاد تكون نفس المواضيع التى عالجها القديس « أوغسطين » ، ومن جملة كتبه كتاب (المنقذ من الضلال) ؛ ويكاد يكون هذا الكتاب نفس كتاب (العقائد) لأوغسطين[1] فى مضمونه واصطلاحاته وأغراضه التى من أجلها وضع هذا الكتاب

وقد انتبه إلى هذا التشابه المستشرق فريك Frick الذى قارن بين الكتابين وإذا بينهما تشابه عظيم فى الترتيب والأسلوب والفصول والأدلة ، بل حتى فى بعض العبارات يكاد يكون عجيباً . وقد بحث هذا المستشرق عن نقاط الاختلاف الكائنة بين الكتابين أيضاً والعوامل التى أثرت فى كل من الرجلين فجعلت من الإنسانين إنساناً واحداً اتفقا فى كل شىء عدا الزمن والديانة . وقد دل المستشرق بصورة خاصة على ناحية التصوف والزهد فى حياة كل من الرجلين ، وهى الناحية الحساسة التى أثرت على مزاج كل منهما ، ومزاج كل من أوغسطين والغزالى واحد[2]

وهذا التشابه غريب فى بابه حقاً إذ لم يكن الغزالى يعرف اللاتينية حتى نقول إنه اطلع على مؤلفات أوغسطين ، ولم يرد فى الرواية أيضاً أن أحداً من علماء المسلمين أو المترجمين كان قد ترجم كتاباً من كتب هذا القديس إلى العربية حتى نقول إن الغزالى اطلع على كتب القديس واقتبس منها ـ لم يقل بذلك أحد حتى المستشرقون إلى هذا اليوم

يحدثنا البيهقى فى كتابه تاريخ حكماء الإسلام[3] أن الغزالى كان كثيراً ما يورد كلام العالم الاسكندرى الشهير يحيى النحوى[4] لا سيما فى كتابه تهافت الفلاسفة حيث يقول البيهقى : « وأكثر ما أورده الإمام حجة الإسلام رحمه الله فى تهافت الفلاسفة تقرير كلام يحيى النحوى » ويذكر الشهر زورى فى كتابه « نزهة الأرواح[5] » أن الغزالى أخذ ما أورده فى التهافت من كتب

(١) راجع قائمة كتب إيباء الكنيسة Migne. 16 vol. Paris. 1835.

(٢) راجع Zepf. A. S. Konfessionen. Tübin gen. 1926.

(١) راجع Pfannmüller. Hand. der. Islam literatur. P و 282

(٢) نفس المصدر ص ٢٨٢

(٣) نقلا عن كتاب تاريخ الفلسفة فى الاسلام لمؤلفه دى بور وترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة فى تعليقه على الكتاب وذكر أن الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٦٦٦ ص ١٢

(٤) يحيى النحوى من الكتاب الذين أثروا على المسلمين كثيراً وقد تعرف على العقائد العربى عمرو بن العاص وله حديث عن مكتبة الاسكندرية راجع الفهرست لابن النديم ص ٣٥٦

(٥) منقول من نفس المصدر ص ٢٠٩ والكتاب مصور على ما يقوله أبو ريدة بمكتبة المجلسة . ص ١٨٢ — ١٨٣

يحي النحوى وقد اشتهر يحي النحوى هذا بردّه على الفيلسوف برقلس Proklos (٤١٠ — ٤٨٥ م) رئيس المدرسة الإفلاطونية الحديثة فى أثينا وصاحب كتاب « مبادئ تعاليم اللاهوت » ، وكتاب شرح محاورات أفلاطون فى إبطال نظرية قدم العالم[١] .

هل يستطيع القارئ استنتاج شيء عن هذه الرواية ؟ والظاهر منها أن الغزالى كان قد اطلع على كتب الفيلسوف يحي النحوى وكتب هذا الأفلاطونى المتفلسف كما يقول ابن القفطى كثيرة[٢] تعالج مواضيع فلسفية متنوعة وتعالج مواضيع تخص الكنيسة والعقيدة وهو أحد رجالها فهل توصل الغزالى إلى آراء أوغسطين عرضاً بواسطة كتب يحي النحوى ؟ ولكن هل كانت آراء يحي أو يوحنا النحوى[٣] هذا مستمدة من منبع آخر هو أوغسطين بالنقل دراية أو رواية أو بتشابه الفكرة وتوافق العقيدة فانتقلت هذه عرضاً أو دراية إلى الإمام الغزالى بالنقل أو بطريقة الاطلاع ؟ لا أدرى . وعلى كل فهنالك مشاكل علمية كثيرة لا يمكن للمؤرخ أن يجيب عنها أجوبة قاطعة أبداً .

وخلاصة ما يمكن قوله هو أن بين الحجتين تشابهاً عظيما جداً يكاد يكون محيراً ؛ وأن هذا التشابه هو الذى جعل لكتب الغزالى رواجاً عظيما بين فلاسفة أوربا المدرسيين المسيحيين وشهرة كبيرة أثرت على آراء بعض علماء اللاتين مثل توماس الأكوينى وباسكال بطريقة مباشرة أو غير مباشرة[٤] حتى يمكن أن نقول إنه كان حجة لدى المسيحيين كما كان حجة لدى المسلمين

أدرك علماء من المسلمين هذا التشابه بين آراء الغزالى وبين آراء يحي النحوى فقالوا بأن الغزالى كان يقرر ما كان يحي قد سبقه به . وأدرك بعض المستشرقين ما بين كتاب « المنقذ من الضلال » وما بين كتاب أوغسطين « العقائد » من الاتصال فقالوا قولاً لم يجزموا أنفسهم بما قالوه جزماً . وأدرك المستشرقون أيضاً ما بين « الكوميديا الإلهية » للشاعر الإيطالى دانته الشهير Dante alighieri « ١٢٦٦ — ١٣٢١ م » وما بين بعض القصص الإسلامية من الاتصال مثل قصة الإسراء[١] . وقالوا إن دخول هذه العناصر إلى الكوميديا الدينية كان إما عن طريق مباشر وإما عن طريق الأساطير الأوربية التى سبق عهدها عهد الكوميديا الإلهية[٢] . وتظهر هذه الروح الإسلامية فى كثير من مواضع الكوميديا . وقد أيد بحث بعض المستشرقين أمثال سنوك هورگرونيه Snouck Hùrgronje وإيتالو بيتزى Italo Pimymyi هذا الرأى . وقد كتب العالم الشهير Miguel asin Palacios عن هذا الموضوع كتاباً خاصاً حلل فيه الكوميدية تحليلاً دقيقاً مظهراً أثر القصة العربية فيه[٣]

وقال آخرون إن هذا التشابه أمر واقعى ؛ ولكنه لا يعود إلى مصدر عربى أصلاً بل يعود سببه إلى التقارب الكائن فيما بين العقليتين الرومانية والعربية[٤] . بينما يرى إسن أن لرسالة الغفران للشاعر المتشائم أبى العلاء المعرى ، وهو شاعر فيلسوف يوافق تفكيره التفكير الغربى أثر لا ينكر على كوميدية دانته هذه[٥] . وهذا رأى ذهب إليه مستشرقون آخرون وقد تعودنا سماعه ، ولكنه يحتاج إلى بحث علمى دقيق لنرى وجه التشابه ، وسبب هذا التقارب فى الأفكار

وعلى كل فهنا مثالان نسوقهما للقارئ من أمثلة كثيرة ، ليرى إلى أى مدى يصل التشابه الفكرى بين الناس أحياناً وهو موضوع مهم أكثر ما يسقط فيه المستشرقون . يحتاج إلى درس عميق ومقارنة بين العقليات البشرية ، وخصوصاً فيما يطلق عليه « الأفكار البشرية العامة » وهي الأفكار التى تخطر على بال كل أحد وتمر على فكر كل إنسان .

هيرلو هى

---

(١) راجع قاموس الفلسفة لشميد ص ٥١٥ وأبو ريدة ص ٢٠٩

(٢) راجع كتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٢٣

(٣) ويعرف باسم Johannes Philoponus

(٤) وقد ترجمت بعض كتب الغزالى الرئيسية إلى اللاتينية في عام ١١٥٠ الميلادية راجع : Hitti. P 432 و Theodor nöldeke فى مجلة Z D. M G . عدد ٤٠ سنة ١٨٩٤ ص ٤٠ — ٤٨ :

(١) Miguel Asin. Islam Ande The Divine Comedy. London 1926.

(٢) راجع تراث الاسلام ج ١ ص ١٩

(٣) راجع Plassmuller. S 203 و

(٤) راجع Babinger. Der. Islam 12, 1921. S 138 f and Jakab Overmans, Stimmen der Zeit. Bd, 99. 1920. P 188-192 و

(٥) Asin. Islam and the Divine comedy. and Hitti, 459